اللغة والمفاهيم و العوالم :
ثلاثة مجالات للاستعارة

ترجمة: د. طارق النعمان *

الملخص

تمثِّل الاستعارات، وفقًا لجون سيرل، فئة من التعبيرات اللغوية التي تقول شيئًا وتعني شيئًا آخر . وهي في هذا تشبه ، كما يذكر ، حالات المفارقة irony و أفعال الكلام غير المباشر indirect speech acts . والسمة المميزة لكل مثل هذه الأنماط من التعبيرات اللغوية هي أن التلفظ الحرفي the literal utterance – ما هو فعليًّا مقول – «قاصر» بمعني ما، متخذًا شكل «الكذب الواضح أو الهراء الدلالى semantic nonsense ،أو انتهاك قواعد أفعال الكلام أو انتهاكات مبادئ التواصل التخاطبية violations of conversational principals of communication ». والمشكل الذي تثيره مثل هذه التعبيرات وفق ذلك هو أن يحدِّد أين ، إن لم يكن في التلفظ نفسه ، ينبغي للمرء أن ينظر ليتبين ما تعنيه فعليًّا . و بهذا الصدد فقد قدَّم سيرل التمييز بين معني الجملة «الحرفي» ومعني تلفظ «المتكلم» و اقترح أنه ينبغي علي المرء أن ينظر إلي الأخير من أجل المعني الحقيقى. بعبارة أخري إن الجملة يمكن أن تقول شيئًا، في حين يمكن أن يقصد «بها» المتكلم شيئًا آخر ، والمعنى المفترض أن يُسْتَنْتَج من الجملة يجب أن يتم إسناده إلي ذلك القصد وقراءته من خلال ذلك القصد . فالمتكلم ، مثلاً ، بقوله: «سالي لوح ثلج» ، يمكن أن يقصد أن يوصِّل أن سالي إنسانة باردة و غير متجاوبة ، ويجب علي المستمع ، لكيما يؤوِّل ذلك التلفظ بشكل ملائم ، أن يقرأ بالضبط ذلك المعنى المقصود .

---

* كلية الآداب - جامعة القاهرة - جمهورية مصر العربية.

إن ثمة الكثير المفيد للغاية في طرح سيرل حول دراسة الاستعارة ، وإذا ما كنت أختلف عن رؤاه فليس إلى حد ألا أتفق مع نتائجه بقدر ما أنني أستشرف دورًا مختلفًا في مقاربتي يفترض أن تلعبه الاستعارة .

و بدايةً ، فإنني أعتقد أنه من الضروري في نطاق تطوير طروح خاصة بالاستعارة أن يتم توضيح إذا ما كان الطرح مصمّمًا ليطبق على اللغة الاستعارية عمومًا، أو على الاستعارات كما تجري في الحياة اليومية ، أو على الاستعارات كما تقع في الأدب، خصوصًا الشعر ، إذ على الرغم من أنه في نقاش سيرل للاستعارة تظهر من آن إلى آخر استعارة قادمة من الشعر ، إلا أنني أظن أنه من الإنصاف أن نقول: إن معظم أمثلته من النوع الذي يصادفه المرء في الكلام اليومي أي أنها استعارات نثرية أكثر منها شعرية . و لعله قد لا يكون هناك سبب يمنع من أن يكون لطرح سيرل تطبيق علي الاستعارة عمومًا ، أي على استعارات اللغة الأدبية كما على استعارات اللغة العادية. ومن المحتمل أن يكون ذلك فعلاً هو قصد سيرل . ومع ذلك، فلو أن غرضنا هو أن نطوِّر نظرية استعارة قابلة للتطبيق علي الاستعارات الشعرية ، فإن مقاربة مختلفة للمشكل العام قد تكون مطلوبة .

نظرية المقارنة ونظرية التفاعل

قد يكون من المفيد ، قبل التطرق إلي عرض رؤاي الخاصة بالموضوع ، أن نستدعي الموقف النظري عام 1979حين ظهر أصلاً مقال سيرل . وأريد بصورة خاصة أن أركز علي نقاش سيرل لما نظر إليه بوصفه مثالب مقاربتين أساسيتين مختلفتين في تأويل الاستعارة – مقاربة تطرح مقارنة a comparison أو مشابهة similarity بين موضوعين، و الأخرى تحوي تعارضًا لفظيًّا a verbal opposition أو تفاعلاً interaction بين محتويين دلاليين .

ويعيّن سيرل ،في ظل الحفاظ علي التوجه التداولي لنظريته عن الاستعارة ،عيوب هاتين المقاربتين في تركيزهما بشكل أساسي علي الجوانب الدلالية للتلفظ الاستعاري. و علي حد صياغة سيرل ؛ فإن التلفظ الاستعاري ، بتأكيده علاقة مشابهة قائمة

بين الموضوعين، يحدِّد مجموعة من شروط الصدق a set of truth conditions التي يلزم عنها وجود الموضوعات المستهدف أن تقوم بينها العلاقة ؛ و علاوة علي ذلك فإن دعوي المشابهة المصنوعة بالتلفظ الاستعاري مفترض أن تكون صادقة true. ويناهض سيرل هذين المطلبين لنظرية المقارنة ، علي التوالي ، بواسطة أمثلة مثل «سالي تنين» و «ريتشارد غوريلا» .

ويحتج سيرل ضد نظرية المقارنة بأنها تفترض وجود موضوعات تتم مقارنتها، وذلك لأن الوجود ليس مطلبًا ضروريًّا للاستعارة الناجحة ، و هي دعوي يجب أن تكون باطلة . إن هذا يدهشني بوصفه نقدًا اعتباطيًّا an arbitrary criticism .فأي نظرية عن الاستعارة ، بما فيها نظرية سيرل ،يجب أن تتعامل مع التقريرات the assertions المصنوعة في التعبيرات الاستعارية . إذ سواء أكنّا نشغل أنفسنا بالتقريرات المصنوعة في التلفظ الاستعاري نفسه ، أم بتلك المفترض أن تؤلف قصد المتكلم في إنتاج ذلك التلفظ ،فإننا نواجه دعوي ضمنية بوجود وضعية معينة . و إلي حد أن شروط الصدق تكون ضمنية في تلك الدعوي سيظهر أن الوجود لازم entailed بالنسبة إلى أي موضوع محال إليه . إلا أن هذه الاعتبارات المنطقية لا تلعب بوضوح دورًا نقديًّا في تشكيل الاستعارات وإنتاجها. و لا يُحتاج أن تلعب أي دور في تقييم نظريات الاستعارة. وهكذا تمامًا كما هو متاح لنظرية المقارنة أن ترتِّب الخواص في ظل غياب الموضوعات المفترض أن تكون الحاملة لتلك الخواص يكون كذلك بالنسبة إلى أية نظرية أخري عن الاستعارة .إذ لا ينبغي أن يعد أمرًا قاتلًا بالنسبة إلى نظرية المقارنة أن يكون تحليلها لـ «سالي تنين» ليس قادرًا علي أن ينتج تنينًا .

وحين يأتي سيرل لينتقد نظرية التفاعل الدلالي، فإنه يقتبس – بوصفه أحد فروضه– مطلبًا يتمثل في أنه يجب أن يكون في التلفظ الاستعاري عنصر واحد ضمن ذلك التلفظ حرفيّا – ليعمل بوصفه «الحامل» أو «الإطار» – ويقول عن ذلك الفرض: إنه بوضوح زائف .و بقدر ما أعلم ، مع ذلك ،فإن أنصار نظرية التفاعل الدلالي لم يزعموا في أي مكان أنه من الضروري أن يكون أحد العناصر في التلفظ الاستعاري

حرفيًّا . و علي أية حال ،و كما يظهر مثال سيرل «الأخبار السيئة لوح ثلج» فإن أية مغادرة لذلك المطلب ستثقل الهواء وتلوّثه .

أما اعتراض سيرل الآخر علي نظرية التفاعل الدلالي فيتمثل في «أن ليس عمومًا الحال أن معنى المتكلم الاستعاري هو نتاج أي تفاعل بين عناصر الجملة بأي معنىحرفي «للتفاعل» » . وحجته في ذلك مؤسسة على الافتراض الخاص بأن معني أنماط معينة من العبارات الاسمية – بصورة أساسية أسماء الأعلام والتعبيرات الإشارية indexical expressions – مستهلكة في وظيفتها الإحالية و أنه ليس ثمة إلا بقية دلالية ضئيلة باقية أو ما من بقية باقية أساسًا لتدخل في «التفاعل» . و هذه محاجة جوهرية ،لكن هنا مرة أخرى يمكن أن تُقلب ضد نظرية سيرل ذاتها . فسيرل يبيح لنفسه توسعًا لافتًا حيثما تكون «الدلاليات» هي موضع الاهتمام ، فهو يضمِّن المعرفةَ الوقائعية factual knowledge، معتقدات المتكلمين ، وتداعيات ، وإدراكات، وتوجهات، و ما إلى ذلك . فإذا كان لمدى الإمكانات أن يُطبّق في تحديد الدلالة لاسم علم أو تعبير إشاري، فإن المحصلة ستكون أكثر من إحالة بسيطة إلى فرد . ومن ثَمّ فلو أن الشرط متوافرلتوظيف كل هذه السمات في نظرية التفاعل لما كان بوسع سيرل أن يدرج أسماء الأعلام والإشاريات indexicals بوصفها سالبة لمصداقية تلك النظرية. بل على العكس لو كان للمرء أن يرفض الإقرار بهذه السمات في طرح سيرل عن الاستعارة ، فإن هذا الطرح سيعاني الإعاقة نفسها ، حيث تكون مثل هذه التعبيرات معنية بأنه يدعي على نظرية التفاعل .

دفيدسون عن الاستعارة

تقريبًا في الوقت نفسه الذي ظهر فيه مقال سيرل 1979، ظهر لدونالد دفيدسون مقال عن مشكل الاستعارة «D . Davidson ،1978» . و على الرغم من الاختلافات البارزة في مقاربتيهما ، نلاحظ المقالين يشابه أحدهما الآخر في جوانب نقدية معينة. إذ يؤكد كلاهما أنه لا يوجد في التلفظات الاستعارية تعديل للمعنى modification of meaning في أيٍّ من عناصر التعبير الاستعاري – فالتلفظات الاستعارية مثل التلفظات

الحرفية تعني ببساطة ما تقوله ، فعناصرها المكوِّنة حاملة فقط المعاني التي تملكها في التلفظات الحرفية . بعبارة أخري ، فإن كلتا النظريتين تنكر الدعوى المركزية لنظرية التفاعل الدلالي ، التي يكون فيها معنى عنصر أو أكثر من العناصر في التلفظ الاستعاري معدّلاً بصورة ما كنتاج «للتفاعل» . و في الوقت ذاته ، مع ذلك، فإذا ما أُخذ في الحسبان أن التلفظات الاستعارية تعني ببساطة وفقط ما تقوله ،فإنه يظل ضروريًّا لنظرية الاستعارة بصورة ما أن تعلل مسألة أن مثل هذه التلفظات تتطلب من أجل إقرار دلالتها أو مغزاها الاستعاري نمطًا خاصًّا أو مميزًا من التشغيل اللغوي. و بالنسبة إلى سيرل ،فإن هذا التشغيل يشمل استدلالاً علي المعنى المقصود من قبل المتكلم ،و هو في هذه الحالات المعنى الذي يختلف عن معنى الجملة كما هي ملفوظة، أما بالنسبة إلى دفيدسون فإنه يشمل ممارسة خاصة من النشاط التأويلي للسامع ، ممارسة تلعب فيها مشابهات أو تشابهات غير مشفّرة دورًا بارزًا.

ومن المفهوم أن نظرية سيرل ، مستغلة كما تفعل الدور النقدي الذي يلعبه معنى المتكلم ، ذات بعد تداولي جلي . كما يمكن قول الشيء ذاته بالنسبة إلى نظرية دفيدسون. فهو يقول في أحد المواضع: «إنني أعتمد علي التمييز بين ما تعنيه الكلمات و ما هي مستخدمة لتفعله . وأعتقد أن الاستعارة تنتمي بشكل قاطع إلي مجال الاستخـدام» «D. Davidson , 1978 ,p.33» .

و يمكن تمييز جوانب عديدة من وظيفة هذا «الاستخدام في مقال دفيدسون . ومن ثَمّ ، فإنه يقارن في أحد المواضع الاستعارات مع الأكاذيب ويشير إلي تشابههما بحيث إن « الكذب ، مثل صنع الاستعارات لا يهتم بمعنى الكلمات ، و إنما باستخدامها» «p.42 , 1978» . فالمتكلم بقوله كذبة ما يعرف أن ما يقوله زائف false ، لكنه يقصد أن يأخذه السامع بوصفه حقيقيًّا true ، و بالمثل فإن المتكلم حين يصنع استعارة يعرف أن ما يقوله زائف ، و مع ذلك فإنه في هذه الحالة ، فيما يقول دفيدسون ، يقصد أن يأخذ السامع كلامه بوصفه استعاريًّا. و كل هذا ، مع الأخذ في الحسبان للتحول البارز في بؤرة التركيز ، يمكن أن يصاغ بمصطلحات تحليل فعل الكلام لدي سيرل .

و في معالجة سيرل للاستعارة ، تعني الجملة شيئًا واحدًا « س هي ب» « S is P »، في حين معنى المتكلم شيء مختلف « س هي ر » « S is R »، وحيث تكون « س هي ر » يكون المعنى الذي في ذهن المتكلم هو المعنى الاستعاري؛ ومن ثَمّ يكون له محتوى معرفي محدّد ، والأكثر من ذلك و الأهم هو أن مؤوِّل الاستعارة يجب أن يستعيد هذا المحتوى . و بناءً علي ذلك ، فإن سيرل يكتب في أحد المواضع قائلًا : « إن السؤال الذي نحاول أن نجيب عنه ، في صيغته البسيطة هو كيف يمكن للمتكلم أن يقول استعاريًّا «س هي ب» و هو يعني «س هي ر»، في حين أن ب لا تعني بوضوح ر ؟ » ، ويمضي سيرل مع ما يتصل بالسياق الحالي ؛ فيقول :

«أكثر من ذلك ، كيف يمكن للسامع الذي يسمع التلفظ «س هي ب» أن يعرف أن المتكلم يعني «س هي ر» ؟ » و فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة ، فإن موقف دفيدسون مختلف بشكل ظاهر . إذ إن الجملة في تحليل دفيدسون ، كما هو مع سيرل ، تعني شيئًا واحدًا في حين أن المتكلم يستخدمها ليوصل شيئًا آخر «أو علي الأقل شيئًا أكثر». ومع ذلك ، فإنه لا يوجد مقتضى أو تضمن خاص بأن المعنى الذي تستدعيه الجملة، أي التأويل الذي يفرضه السامع عليها ، يحتاج أن يتماثل مع معنى مقصود من المتكلم . وحقيقة ، فإن دفيدسون ينكر بوضوح أي تلازم من هذا النوع . فهو يكتب ، قائلاً : « إن الخطأ المركزي بخصوص الاستعارة تسهل بشدة مهاجمته عندما يتخذ شكل نظرية للمعنى الاستعاري ، لكن وراء تلك النظرية ، وهي مستقرة بشكل مستقل ، الفرضية الخاصة بأن ما يرتبط باستعارة ما هو محتوى معرفي a cognitive content يرغب مؤلِّفها في أن يوصِّله و أن المؤوِّل يجب أن يلتقطه إذا ما كان له أن يتلقى الرسالة. إلا أن هذه النظرية زائفة ، سواء أكنا ندعو المحتوى المعرفي المستهدف معنى أم لا «1978 , p. 46» . و بالنسبة إلى دفيدسون ، فإن العمل المهم في المشروع الاستعاري يحدث عند « تلقي « receiving » « نهاية التعامل the transaction . وأيا كان ما يمكن أن يقصده مؤلف الاستعارة ليتواصل ، فإن التلفظ نفسه له معناه الحرفي فقط ؛ وكرد فعل على هذا المعنى ، أيا كان ، فإن السامع محفّزstimulated أن يتصور و يشغِّل

سلسلة من العلاقات الجديدة . و من الممكن ادعاء بعد تداولي إضافي بالنسبة إلى نظرية دفيدسون. إذ كما رأينا ، حيث يوجد بالنسبة إلى سيرل فضاء إشكالي a problematic space بين ما تعنيه الجملة و ما يقصد المتكلم لها أن تعني، فإن مثل هذا الفضاء ، بالنسبة إلى دفيدسون ، يوجد بين ما تعنيه الجملة و ما يؤوّله السامع أو القارئ علي أنها تعنيه. فهو يكتب قائلاً : « إن الاستعارة تجعلنا نري شيئًا بوصفه شيئًا آخر بواسطة صنع عبارة ما حرفية تحفّز أو تلهم البصيرة» «p, 1978 47 .». فالعبارة الحرفية the literal statement التي تحفّزنا إلى الاستبصار يكون لها، نمطيًا، خاصية مميزة، خاصية كونها زائفة صراحة «p . 42 , 1978». و ستقود مسألة أن الزيف صريح قارئ الاستعارة حينئذٍ إلي أن يخفّض دعاوى الصدق the truth claims التي يمكن أن تكون الجملة صانعة لها و يحاول، طبقًا للإيمان الجيد في المؤلف للجملة ، لكي يفسّر معنى الجملة أن يلتمس «تضمنها الخفي». و في هذه العملية سيكون القارئ مدفوعًا إلي أن ينظر إلي إمكانات جديدة من العلاقة بين موضوعات العالم : « إن الاستعارة تجعلنا ننتبه لشبه ما – غالبًا شبه جديد أو مدهش – بين شيئين أو أكثر» «p . 33 , 1978». وما يعنيه هذا هو أننا في تفسير استعارة ما يجب أن نستدعي معرفتنا بالعالم «معرفة موسوعية»؛ أي أن الشبه المضمّن the implicated likeness يكون جديدًا ، فالمعرفة المطروحة هنا لن تكون معرفة مشفّرة codified knowledge من النوع المستدمج ضمنيًا في الكلمات كما هي مستخدمة مع اتساعاتها المعتادة normal extensios وجملها بمحمولاتها المعتادة normal predictions. بل بدلاً من ذلك ، تتطلب الاستعارات منا أن نفكر في موضوعات العالم بعلاقات غير مسبوقة ، ومن ثم بعلاقات غير مشفّرة دلاليًا . ويمكن للمرء أن يتصور أولا يتصور أن استخدام المعرفة الموسوعية في تأويلنا للجمل يؤلّف بعدًا للتداولية ؛ إذ يبدو لي في عملية التفسير الاستعاري – كما هي موصوفة أعلاه – والتي تكون فيها مع ذلك الوظيفة الدلالية المعتادة للعناصر اللغوية مُتَجَاوَزة بشكل فعال وحيث تعمل معرفتنا بموضوعات العالم بشكل نقدي ، أن المرء يمكنه أن يزعم بشكل معقول بعدًا تداوليًا

. إن مقاربة دفيدسون للدلاليات امتدادية بصرامة rigorously extensional . ومن ثم ، فمن أنماط « القصور « الأربعة المرصودة من قبل سيرل بوصفها محرّكة عملية التفسير الاستعاري « « الزيف الواضح ، أو الهراء الدلالي semantic nonsense، أو انتهاك قواعد أفعال الكلام ، أو انتهاك مبادئ التواصل التخاطبية » » ،لا يعتد دفيدسون إلا بالنمط الأول بوصفه شغّالاً operative «ومُتمّمه المقابل ، الصدق الواضح obvious truth» . و بإدراج ما يدعوه « الهراء الدلالي» بوصفه أحد الشروط المُطلقة للتفسير الاستعاري ، يبدو لي أن سيرل يقدم الشاهد الأفضل . إن الاستعارات تأتي في كل أنواع الترتيبات التركيبية . إذ إن تخفيض معنى محصلات كل هذه الترتيبات المختلفة إلي الفئة الدلالية الوحيدة للزيف الصريح يبدو غير سليم من وجهة نظر نظرية علي حدّ سواء. و فيما يبدو فإن ما دفع سيرل إلى أن يضم «الهراء الدلالي « في منظومة آلياته المُحرّكة هو استعارات من النمط الذي تمثّله «السفينة تحرث البحر» إذ يُعد « النمط الذي تمثّله « سالي لوح ثلج « مُحرّك الزيف الواضح» . أما بالنسبة إلى دفيدسون ، فإن كلتا هاتين الجملتين ، والنمطين اللذين تمثلهما ستكونان زائفتين زيفًا صريحًا. إذ إن كلتا هاتين الجملتين، إذا ما أخذتا حرفيا، زائفتان : إذ ما من أحد هو لوح ثلج ، و ما من سفينة تحرث البحر. إلا أننا نصل إلي هذه النتيجة لا باختيار الوقائع ، بل نقرؤها من الجمل ذاتها . و ربما هذا هو ما يعنيه دفيدسون بدعوته مثل هذه الجمل زائفة زيفًا صريحًا، أي أن شروط الصدق هي كذلك بحيث إنه لا يُحتاج للبحث الإمبريقي ليحكم عليها بأنها زائفة . فالمرء يحتاج ، مع ذلك ، ألا يقارب تحليل مثل هذه الجمل بناءً علي المعالجة التي ستتلقاها في الدلاليات النظرية للصدق، و إنما يمكن مقاربتها علي خلفية كيف سيستجيب لها متكلم متورط في موقف الكلام الفعلي علي أساس كفاءته اللغوية . وإذا كان المرء سيتبنى هذه المقاربة – و المرء يحتاج بجدية أن يعتد بهذه المقاربة إذا ما كان معنيًّا ليس فقط بتحليل الناقد للاستعارة ، وإنما أيضًا بخبرة السامع أو القارئ لها – يجب عليه أن يُضمّن الهراء الدلالي « وهو ما سأفضّل أن أدعوه « الانحراف الدلالي « semantic deviance » » في

مجموعة الشروط التي تُطلق التفسير الاستعاري.

إننا نشفّر في مرحلة معينة من تطورنا اللغوي ، ربما علي أساس شروط فعلية أسبق تمت مقارنتها مع دعاوى الصدق التي تشكلها الجمل ، العلاقات التي يمكن أن تدخل فيها الفئات التركيبية و الدلالية للغتنا. و تشفير هذه العلاقات هو ما ترتقي إليه المعرفة الحدسية من خلال نحو ما a grammar. إذ يجب للجملة ، علي أساس نحو مُتَمَثّل للغاية a grammar so internalized، أن تتوافق فيما يتعلق بكل من تشكلها التركيبي الجيد و تماسكها الدلالي، إذ إن الاستعارات تنجح نمطيًا في أول هذين الاختبارين وتخفق في الثاني، وهي تخفق في الثاني فوريًا وحدسيًا ، علي أساس نحوي بشكل خالص ، و لم يعد اللجوء إلى اختبارات الصدق الكائنة في هذه المرحلة من تطورنا اللغوي ضروريًا . وستظل هذه المسألة غائبة عن النظر علي نطاق واسع، إذا ما ظل تركيزنا مُنْصَبًا على الأمثلة الدائرة للاستعارة مثل «الإنسان ذئب»، و «سام خنزير»، و«سالي لوح ثلج»، وهي جمل اقترانية copulative sentences تكون فيها العبارة الاسمية متبوعة بمحمول غير متسق نوعيًا معها . وبالنسبة إلى استعارات من هذا النمط يمكن بقدر ما من المعقولية أن يكون الزيف الصريح مرشّحًا بوصفه الآلية التي تُطلق التفسير. لكن حيث تكون الجملة الاستعارية ليست من النمط الاقتراني، كما في «السفينة تحرث البحر» – ناهينا عن ذكر أمثلة من الشعر مثل «وقفت حياتي – مسدسًا محشوًا» «My life stood – a loaded gun » – يصبح من المشكوك فيه أكثر وأكثر أن تكون استجابتنا الفورية مرجعية referential بشكل طبيعي ، بل الأكثر احتمالاً إلي حد بعيد أن نستجيب علي أساس كفاءتنا اللغوية المتأصلة ، بمعني حدسي فإن مكونات الجملة الاستعارية تنتهك القواعد التي تحدِّد العلاقات المسموح بها بين العناصر الدلالية. و دعونا نعاين في هذا الصدد الأسطر التالية من ييتس «الإبحار إلي القسطنطنية » :

رجل عجوز شيء تافه ليس إلا

معطف بالٍ علي عصا ما لم

تصفّق الروح يديها وتغنّي
An aged man is but a paltry thing
A tattered coat upon a stick , unless
Soul clap its hands and sing

إذا حلّلنا الاستعارات الأساسية في هذه القطعة ، فإنه بإمكاننا أن نحاجج بأن الزعمين الرئيسين أن الرجال معاطف (علي عصا) و أن الأرواح تُصفّق أياديها و تُغنّي كليهما زائفان صراحة؛ لأن الرجال ليسوا معاطف و الأرواح ليس لها أيادٍ و لا تغني . إلا أن هذا التحليل سيغفل تمييزًا مهمًّا: الرجال ليسوا معاطف ، مقابل الأرواح ليست من الأنواع التي لها أيادٍ أو تغني. فالمحمول في الاستعارة الأولى يعزو الموضوع إلي فئة غير ملائمة an improper category، و في الثانية يسند إليه خاصة أو خاصية غير منطقية. و بمصطلحات نحوية، فإن هذا يعني أن كلتا الاستعارتين تنتهك قواعد الاتساق الدلالي semantic consistency. و كما اتضح أعلاه ، فإن الانتهاكات تتخذ أشكالًا مختلفة. والآن أعتقد أن استجابتنا لـ « القصور » في الاستعارات تعمل في المقام الأول دائمًا بوصفها وظيفة لأنظمتنا النحوية المستدخلة «1». ويمكن أن يكون، مع ذلك، أنه حيث تكون الاستعارات الكينونية copulative metaphors معنية، تكون الاستجابة إزاء انتهاك قاعدة الافتـــراض الفرعي الخاص بـ «عضوية الفئة» «membership class» استجابة يصاحبها إقرارنا أن الدعوى المصنوعة بالتأكيد الاستعاري the metaphoric assertion زائفة . إلا أنني أترك هذا السؤال مفتوحًا. و مع ذلك، فإننا حين نواجه استعارة لا تتضمن افتراضًا فرعيًّا غير ملائم an improper subsumption بل إسنادًا غير ملائم an improper attribution، حينئذٍ تكون استجابتنا المباشرة ، فيما أزعم، لغوية بشكل خالص، و مشتقة من فهمنا الضمني للقيود علي القواعد الخاصة بالربط الدلالي ، و ليس من معرفتنا بكيف يكون العالم متشكلًا ؟

تفعيل المشكل

قد يكون من الجدير الآن أن نقول المزيد حول «تفعيل» المشكل ، لنعاين في سياق

أعم ما الذي يجعل السامع أو القارئ يستدل أن التعبير الذي يواجهه يتطلب أن يكون مفسّرًا «قارن الملحوظة1» . لقد بينت أعلاه لماذا أعتقد أن العملية بالنسبة إلى الاستعارات الأدبية يتم التوصل إليها بواسطة إدراك حدسي أن العناصر التي في التلفظ غير متوافقة دلاليًا مع بعضها . و بهذا الصدد فإن حالات المفارقة irony وأفعال الكلام غير المباشر تختلف اختلافًا أساسيًا، و لذلك علي العكس من الاستعارة، حيث يكون التفعيل مؤسسًا على السمات الدلالية ،فإنه بالنسبة إلى المفارقة وأفعال الكلام غير المباشر يستقى من اعتبارات تداولية . وهذه نتيجة منطقية لحقيقة أن التلفظات المفارقة و أفعال الكلام غير المباشر تكون مفهومة دلاليًا . إذ ما من عدم توافق دلالي بين الكلمات في «لقد كانت ملاحظة ذكية للغاية» أو «مذياعك يصدر الكثير من الإزعاج». إن كلتا هاتين الجملتين من الممكن أن تكونا متلفظتين في ظروف يكون فيها معنى الجملة و معنى المتكلم متطابقين، بلا إشارة ما إلى أنهما يستدعيان فهمًا أكثر من المعتاد. و بالنسبة إلى الجملة الأولى لكي تعمل على نحو مفارق فيجب أن يكون هناك عدم توافق بين ما تقوله الجملة و سمات السياق غير اللغوي؛ أمّا لكي تعمل الجملة الثانية كفعل كلام غير مباشر شيئًا بخصوص السياق فيجب أن يتضح أن الجملة تكون مستخدمة لتفعل أكثر من مجرد أن تقرر واقعة. و برؤيتهما علي هذا النحو تكون المفارقة وأفعال الكلام غير المباشر تداولية بشكل حاسم في طبيعتها.

و بهذا الصدد فإنه يمكننا أن نتناول نمطًا آخر من التعبير يظهر كثيرًا في مناقشات الاستعارة. ومن ثم ، فإن الدعوى التي تجعل ذلك الانحراف الدلالي شرطًا ضروريًا للاستعارة عادة ما تواجه بإيراد أمثلة لا يكون فيها انحراف . و يذكر سيرل في نقاشه مثال تعليق دزريلي كما هو حين أصبح رئيسًا للوزراء : « لقد تسلقت إلي قمة العمود الدّبق « I have climbed to the top of the greasy pole ».

إن المسألة المهمة في النقاش الحالي حول هذا المثال و الأمثلة المشابهة هو أنها لكي تكون مفهومة استعاريًا يجب أن تكون مستخدمة في سياق «غير لغوي» لا متوافق context « nonlinguistic » incompatible» – علي سبيل المثال ، حيث لا يوجد عمود

دبق ولم يحدث فعل تسلق . إذ لو أنه ينبغي لهذه الشروط أن تكون حاضرة في الحقيقة و لو أن المتكلم يقصد أن يحيل إليها ، فإن الجملة حينئذٍ لن تعمل استعاريًا . و قد نطلق علي مثل هذه الجمل استعارات ملتبسة equivocal. فاللجوء في مثل هذه الاستعارات إلى معنى تلفظ المتكلم – كما هو أيضًا في المفارقة و أفعال الكلام غير المباشر – يجب أن يكون محفوزًا بعدم توافق معنى الجملة مع المحيط الذي تكون متلفظة فيه. إذ لا يمكننا أن نحدّد قصد المتكلم الصريح إلا بهذه الطريقة فحسب. هذا في حين أن الموقف خلاف ذلك تمامًا مع الاستعارات الشعرية أو الأدبية حيث يكون القصد، بمصطلحات سيرل ، مقروءًا من التلفظ ذاته .

الاستعارة لدي ليكوف وجونسون

في نظرية الاستعارة المقدمة من ليكوف وجونسون «1980» ، يلعب فصل ما هو مقول عما هو مقصود دورًا مهمًا ، و إن يكن بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي يلعبها ذلك الدور في نظرية سيرل. إذ مثل سيرل، يجادل ليكوف و جونسون أن ثمة بنية ذهنية لمتكلم تكمن وراء التلفظات الاستعارية، لكن في حين تمثل تلك البنية عمومًا بالنسبة إلى سيرل تصورًا غير استعاري «في حالات عديدة عبارة شارحة حرفية»، فإن هذه البنية بالنسبة إلى ليكوف وجونسون هي ذاتها استعارية . إذ إن لغتنا مملوءة بتعبيرات مثل: «دمرتُ حجته» ، « هاجمت فرضيته الأساسية»، « لقد حشد وقائع عديدة ليدعم موقفه». إن مثل هذه التعبيرات ، وفقًا لليكوف و جونسون، تعكس حضور مفهوم استعاري في أذهاننا يرى أن الحجاج حرب . إن الاستعارات التصورية لا تحتاج ، بما هي كذلك، أن يكون معبّرا عنها. و الدليل علي وجودها توفره تلك الاستعارات اللغوية ويستدل عليه منها، مثل الاستعارات المذكورة للتو والتي تقع بشكل عريض وعلي نحو منتظم في الكلام اليومي لمعظم المتكلمين.

و علي الرغم من أن النظريتين تلتقيان بحيث إنه لكي يُتوصل إلي تعليل ما لما هو مقول يجب علي المرء أن يلجأ إلي ما في ذهن المتكلم ، نرى أن هذا لا يعدو أن يكون تشابهًا محدودًا . إذ إن هذا اللجوء هو بالنسبة إلى سيرل نتاج مقاربة فعل

الكلام لتحليل اللغة ، و هكذا وظيفة التداولية . أمّا بالنسبة إلى ليكوف و جونسون ، فإن اللجوء «إلى ما في ذهن المتكلم» ينبع من اقتناع بأن الاستعارات التصورية ، في احتشادها ، تحدد مرْفَبًا للإطلال علي « الحقيقة » « truth » و « الواقع » « reality» ؛ ومن ثم فإنهما يصوغان حجة ميتافيزيقية . ومن هذه الجهة ، فإن موقفهما يحمل بعض التقارب مع الموقف الذي تطرحه فرضية سابير- ورف . أما الاختلاف فيتمثل في أنه مع فرضية سابير – ورف يحدد بشكل مقصود سجلُ الفئات النحوية للغة في ذهن المتكلم رؤية العالم بالنسبة إلى المتكلم ، هذا في حين أنه مع ليكوف و جونسون تُؤَدَى تلك الوظيفة بطبع المتكلم على ذهنه لمجموعة من الاستعارات التصورية .

و مع التسليم أن هذه الانطباعات الذهنية هي فعلاً استعارية في طبيعتها ، فإن السؤال يثار بخصوص مرتبة تلك التعبيرات التي تقع في الكلام و التي فيما يفترض تستقى من الاستعارات التصورية وتعكس وجودها . إذ إنه لا يوجد في معظم نظريات الاستعارة ، بما في ذلك نظرية سيرل ، تساؤل عن المرتبة الاستعارية للتعبيرات المتداولة لغويًا والمستشهد بها علي سبيل التمثيل . إذ هنا وهناك الكثير من الأمثلة التي يمكن تقديمها والتي تكون وظيفتها الاستعارية مخفّفَة بدرجة ما ««سام خنزير»، « الحجاج أصبح ساخناً » ، إلخ » ، لكن التركيز في هذه الدراسات يكون بشكل جوهري علي تعبيرات لغوية لا تكون مرتبتها الاستعارية status metaphoric موضع شك. هذا في حين أن الحال بخلاف ذلك مع التعبيرات اللغوية التي تظهر في نظرية ليكوف وجونسون . إذ من الأمثلة التي يوردانها «إنفاق الوقت» ، و « مهاجمة المواقع»، و«مُضيّنا في طرق منفصلة » .فهذه التعبيرات ، فيما يقولان ،« هي انعكاسات لمفاهيم استعارية منتظمة تبني أفعالنا و أفكارنا. و هي حية بأكثر معاني الحياة أساسية : إنها استعارات نحيا بها . و مسألة أنها راسخة عرفيًّا conventionally fixed داخل معجم الإنجليزية لا يجعلها أقل حياة» . «1980 . p.55» .

إن هذه العبارة الأخيرة تثير جوًا من التناقض ، إن لم يكن حقًّا من عدم الاتساق. إذ إن المرء يفترض اعتياديًّا أن هذه الوحدات راسخة عرفيًّا داخل المعجم إلي حد أن

معانيها تكون معتادة ،

ومن ثَمَّ صارت مستقرة . ومعياريًا يشار إلي هذه الاستعارات التي خاضت هذه الصيرورة بوصفها «ميتة» «dead» ، و ليست «حية» «a live». و الآن يناقش ليكوف وجونسون نمطًا من الاستعارة التي تعد بالنسبة إليهما ميتة «قدم الجبل» ، «foot of the mountain» ، و تعد استعارات هذا النمط ، مثل «رأس الكرنبة» «head of cabbage»، و«رجل المنضدة» «leg of a table» إلخ ، فيما يقولان ، «شاذة » « idiosyncratic» ؛ لأنها «لا تتفاعل مع استعارات أخرى » و «لا تلعب بشكل خاص دورًا مهمًّا في نسقنا التصوري» «p.55 ,1980» . إن هذه الاستخلاصات تبرز بقوة الطابع التصوري لنظرية ليكوف، و جونسون حول الاستعارة . إذ بالنسبة إليهما لا يتم تحديد «حيوية» «the vitality » تعبير لغوي ما بمرتبة عناصره في المعجم و الدور الملعوب بتلك العناصر في التأليفات النحوية ، بل يتم تحديدها بالدور الذي تلعبه تلك العناصر في نسقنا التصوري وبدلالة وظيفتها في السلوك والحديث حول حياتنا اليومية .

اقتراح للاستعارة الأدبية

يتضمن طرح سيرل عن الاستعارة «وكذلك طروح أخرى» الافتراض القائل إنه ينبغي ،مع الأخذ في الحسبان عدم التوافق بين التلفظ والشروط في العالم ، أن تؤخذ الشروط بوصفها ثابتة fixed وأن التلفظ هو ما يجب أن يكون مُفسّرًا . إلا أن هذا لا يعد وضعًا ضروريًا بشكل منطقي؛ إذ يمكننا ، إذا ما أحببنا ، في مواجهة عدم التوافق بين ما هو مقرّر في التلفظ و الشروط كما تتحقق في العالم ، أن نعد التلفظ ثابتًا fixed و أن نفسّر العالم . أي أنه بدلاً من أن نفسّر التلفظ بحيث يكون له معنى في العالم نفسّر العالم بحيث يكون للتلفظ معنى . و بناءً على هذا الطرح ، فإن «القصور» « defectiveness » يكون واقعًا في العالم «أي العالم الفعلي» و ليس في التلفظ. فالتلفظات « المنحرفة » مأخوذة حرفيًا ؛ تعني ما تقول – و ما تعطيه هو العالم .

و بتوظيف هذا التصور للاستعارة ، يجب أن يكون الوضع المصوّر بالتعبيرات اللغوية «المأخوذة في قيمتها الظاهرية» معلّلاً علي نحو ما . وبقدر ما ستكون هذه

الحالات خارقة للطبيعي preternatural ، و هجينة انطولوجيًا bizarre ontologically بقدر ما لا يمكن لتعليلها أن يظهر بشكل فعلي ؛ إذ إن المفهوم المعبّر عنه بالتلفظ لا يمكن له في الحقيقة أن يكون مستدعى للتمثيل الذهني . و مع ذلك ، وكما ناقشت في مكان آخر ، فإنه علي الرغم من أن الحالات الخارقة للطبيعي لا يمكن أن تكون متصورة بوصفها موجودة فعليًا، نلاحظ أن إمكانية وجودها يمكن أن تكون متصورة: إننا نستطيع أن نشكّل تصورًا لما سيجب أن يكون عيه عالم ما إذا ما كان له أن يؤلف مثل هذه الأوضاع «انظر : Levin,1988,pp.65-73» . و بتصور عالم من هذا النوع لا نسقط عينية الحالات الخارقة للطبيعي ، و إنما نعير مصداقية لإمكانيتها . إذ لو أننا نقرأ في قصيدة ما «السماء غاضبة » ، فإننا نتصور عالماً من الممكن أن تكون السماء فيه غاضبة ، وبالطريقة ذاتها ، يمكن أن تكون الريح جائعة ، والنجوم سعيدة، وهكذا. إن الصيرورة المعتادة للتفسير ببساطة معكوسة ؛ فبدلاً من بناء تأويل يتوافق مع الشروط القائمة في العالم الفعلي ، نبني تأويلاً يستجيب للغة الفعلية للتلفظ . ومن ثَمّ، فإن ما ينبثق بوصفه استعاريًّا ليس اللغة المعبّر بها عن القصيدة، بل العالم الذي جعلتنا اللغة نسقطه . إننا نسقط أنفسنا داخل عالم استعاري .

إن أخذ لغة التلفظات الاستعارية حرفيًا هي أيضا وصية سيرل و دفيدسون ؛ والاثنانِ يختلفان فقط فيما يزعمان أن الصيرورة التفسيرية يجب أن تتألف منه. إذ يتخذ التفسير بالنسبة إلى سيرل شكل استدلال على معنى المتكلم ، في حين أن التفسير بالنسبة إلى دفيدسون هو عملية يتصور فيها القارئ أو المحلّل سلسلة مفتوحة النهاية من العلاقات الجديدة التي يستثيرها المعنى الحرفي . و بالنسبة إلى كل من سيرل ودفيدسون ، فإن أخذ الاستعارة حرفيًا هو مرحلة في تطوير تأويل يبتعد عن المعنى المؤلّف بالتلفظ الفعلي .إذ كما وصفت العملية ، فإن لغة الاستعارة أيضا ينبغي لها أن تكون مأخوذة حرفيًا . و مع ذلك ، فإنه لا يوجد ، وفقًا لطرحي ،انزياح دلالي عن المعنى الحرفي أو تضخيم له ، فالاستعارة مفترض ألا تعني شيئًا مختلفًا عمّا تقوله أو أكثر منه . ومع ذلك ،فإنه بقدر ما تكون تعبيرات الاستعارة نمطية «في الشعر»

منحرفة دلاليًا ، بقدر ما يعني هذا أن عبء التفسير يقع على تصور أوضاع خارقة للطبيعي – عوالم استعارية .

و في سياق الملاحظات السابقة دعونا نعاين القصيدة التالية لإميلي ديكنسون :

The mountain sat upon the plain
In his eternal chair
His observation manifold,
His inquest everywhere.
The seasons prayed around his knee
s,
Like children round a sire:
Grandfather of the days is he,

Of dawn the ancestor

جلس الجبل علي السهل

في مقعده السرمدي

متراكبة رؤياه ،

و استشرافه في كل الأماكن .

الفصول تجثو لتصلي حول ركبتيه ،

مثل أطفالٍ حول أبيهم :

جدُ الأيام هو ،

فجر الأسَلاف .

إن نمطًا معياريًا من التأويل من الممكن أن يتضمن ملاحظات مثل الملاحظات التالية : في السطرين الأولين يُعبّر عن موقع الجبل في مكان معين بـ «جلس . . .في مقعده السرمدي» ، كما يُعبّر في السطرين«3 و 4» استعاريًا عن أنه يرتفع أعلى مما يحيط به ، أمّا السطر «5» «الفصول تجثو لتصلي حول ركبتيه» فهو استعارة لرسوخ الجبل على مر السنين ، في حين يحوي السطران «7 و 8» استعارات لعمره الموغل في القدم. وعلى افتراض أن الملاحظات السابقة تعكس بشكل عام مقاربة قياسية

للتحليل الاستعاري ، فإننا سنستخلص أن إميلي ديكنسون خبرت استبصارًا شعريًّا عاديًّا نوعًا ما – استبصار أن الجبل عالٍ ، و قديم ، ومهول فيزيقيًّا – و مضت تصنع من ذلك الاستبصار قصيدة مثيرة إن لم تكن مشهدية بابتداع التعبير عنها بترتيب غير معتاد للغة . و الآن لو أننا سنعكس المقاربة ، فإننا نفضّل العالم الذي توجد فيه للجبل الخواص التي تسندها لغة القصيدة إليه : إنه يجلس بالفعل على مقعد سرمدي، ينظر في كل صوب ، له ركبتان حولهما تجثو الفصول لتصلي، و ما إليه. و بناءً على هذه الرؤية ليست اللغة هي اللافتة، و إنما التصور، فتلك اللغة هي ببساطة وصف أمين لذلك التصور . و قد يثار السؤال إذا ما كانت إميلي ديكنسون قد قصدت حقيقة في كتابتها للقصيدة أن تسقط مثل هذه النسخة من الواقع التي قد اقترحتها . إنني لست متأكدًا أن هذا السؤال سؤال له صلة ضرورية بالموضوع. ففي حالة شعراء «وروائيين» معينين يمكن أن يكون لدينا، انطلاقًا مما تعلّمناه حول رؤاهم للعالم، درجة كافية من الثقة أن قراءة « تصورية » «a conceptionalist reading» من النوع الذي اقترحته أعلاه تكون محفّزة بشكل جيد. «2» ومن ثم ، ففي التعامل مع وليم وردزورث يمكن التدليل على أن لديه رؤية للكون فيها روح مفردة غير متمايزة سارية عبر كل الطبيعة ، توحّد الكائنات الإنسانية و موضوعات محيطاتها الطبيعية. إن قراءة حرفية للاستعارات في شعره «قارن كمُمثّل لفئة متوافقة من الاستعارات «السكينة التي تتنفسها الطبيعة بين التلال والخمائل» «the calm which Nature breathes among the hills and groves» Prelude,I.280–1» ستولد إذًا تصورًا للكون متوافقًا مع رؤية للعالم من هذا النوع «انظر : Leven,1988,pp.227-37». و حتى في ظل غياب أي معرفة محدّدة حول نظرة المؤلف العامة يظل متاحًا لنا ، مع ذلك، أن نفرض تأويلاً تصوريًّا علي العمل . إن بعض قصص جورج لويس بورخيس، و كذلك روايات ما يدعى «الواقعية الخرافية» « fabulous realism» ، تعير أنفسها لمثل هذه القراءة، و في رأيي أنها تربح منها . كما أن شعر وليم بليك سريع الاستجابة لها هو الآخر . والأمر يستوي ، في التحليل الأخير ، مادام أن نقرر أن نأخذ – و نؤول – الاستعارات

التي في العمل حرفيًا يمكن أن يعتمد ببساطة على ما إذا كنا نرغب أو لا نرغب في أن نظهر وجهة نظر العمل في توافق مع تصورنا الخاص لكيف يمكن للعمل أن يكون منظمًا . و هذا القرار يمكن أن يستقى بشكل طارئ من العمل المحدّد الذي يتم تحليله أو يمكن أن يستقى من مبادئ المرء الجمالية أو الثقافية أو الفلسفية العامة.

تعليقات

هذا الفصل هو عبارة عن مراجعة للفصل الذي ظهر في الطبعة الأولي من هذا الكتاب «أي من كتاب «الاستعارة و الفكر» METAPHOR THOUGHT AND، تحرير أرطوني» تحت عنوان «مقاربات معيارية للاستعارة واقتراح للادعاء الأدبي » Standard approaches to the metaphor and a proposal for literary pretension.

1 – من الضروري فهم عملية تفسير الاستعارة و الاستجابة للتلفظ الذي تتطلبه للتفسير بوصفهما عمليتين متمايزتين . إذ إن الأخيرة هي عبارة عن رد فعل تلقائي يطلق العملية التفسيرية. و بالنسبة إلى العملية التفسيرية ذاتها ، فإن تلك العملية تكون مميزة على حد ما أزعم ؛ و ذلك أن نظامًا مختلفًا من الملابسات الدلالية يكون متضمنًا في تشغيل الاستعارة أكثر مما يكون متضمنًا في تشغيل التلفظ الحرفي. ويؤكد دفيدسون في تعليق له ضمن «p. 46 ,1978» ، أنه لا توجد، بالنسبة إلى أي استخدام للغة، نهاية لمدى ما يمكن أن يجعلنا نلاحظه ، بحيث إن الاستعارة لا تختلف في هذا الصدد عن اللغة الحرفية . و لا أجد أنه من الضروري لي أن أختلف مع هذه الدعوى. و مع ذلك، فإن محور اهتمامي ينصب على الاختلاف بين الأشياء المستدعاة لملاحظتنا. و لذا فإن الأمر المهم بالنسبة إليّ يتمثل في حقيقة أن الاستعارات ، في طرح دافيدسون ، تستدعي أشياء وعلاقات جديدة لملاحظتنا . و هذه الحقيقة تجعل العملية التفسيرية للاستعارات مختلفة عن تلك الخاصة بالتلفظات الحرفية . و في

حقيقة الأمر، فإنني لن أقول فيما يتعلق بالنمط الثاني من التلفظات أننا نفسرها ؛ لأننا ببساطة نفهمها .

2 - إن التقابل الضمني بين ما أدعوه مقاربة «تصورية» للاستعارة والمقاربة التصورية لليكوف وجونسون يصل إلي ما هو أكثر من مجرد اختلاف في المصطلح. و ذلك أن اهتمامهما الأساس ينصب علي اللغة العادية ، في حين ينصب اهتمامي أنا على اللغة الأدبية. و ذلك أن المفاهيم ، بالنسبة إليهما ، تحدِّد الشكل الذي تتخذه اللغة، في حين بالنسبة إليّ فإن اللغة «لغة القصيدة أو الرواية» هي ما يحدِّد الشكل الذي سيتخذه تصور ما .

وثمة اختلافات أخري كذلك ، إلا أن هذا ليس هو المكان المناسب لتناولها .

المراجع :

- 47-Davidson , D. (1978). What metaphors mean. Critical Inquiry, 5, 31
- Lakoff, G., & Johnson, M. (1980). Metaphors we live by. Chicago: University of Chicago Press
- Levin, S. R. (1988). Metaphoric worlds. New Haven, CT: Yale University Press